19

ستالينجراد تفتح الباب ... بمناسبة مرور ٦٥ عاماً على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر

ذكرت صحيفة « إزفيستيا» في التاسع من سبتمبر ١٩٤٣ ، في أجواء الحرب العصيبة بعد معركة ستالينجراد وكورسك إن « عملية تبادل الرسائل في الآونة الأخيرة بين إ.م.مايسكي نائب المبعوث الشعبي السوفيتي للشئون الخارجية ، ومصطفي النحاس رئيس الحكومة المصرية أسفرت عن أنه إبتداءً من السادس والعشرين من أغسطس ١٩٤٣ ، سيتم إنشاء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، ونصت الإتفاقية على تبادل السفراء» [٦١٦] .

في الرابع عشر من أكتوبر ١٩٤٣ تم تعيين نيكولاي فاسيليفيتش نوفيكوف ، كأول سفير سوفيتي مفوض فوق العادة في مصر . وكان قد حصل في عام ١٩٣٠ على تخصص مستشرق- اقتصادى من معهد الاستشراق في لينينجراد ، وبدأ العمل عام ١٩٣٨ في المفوضية الشعبية للشئون الخارجية . أما في منتصف عام ١٩٣٩ فقد ترأس قسم الشرق الأوسط بمفوضية الشعب للشئون الخارجية .

كان أ.ف.سلطانوف قنصل البعثة السوفيتية المستقبلية ، في بلاد الأهرامات أول من «مهد» الطريق إلى القاهرة عبر طهران . وقد أخبرني أثناء حديثى معه في ديسمبر ١٩٩١ بأن موعد وصول نوفيكوف إلى الشرق الأوسط قد تأجل بسبب ظروف الحرب العصيبة . وقد وصل القنصل إلي مصر قبل شهر ونصف من وصول السفير المفوض ؛ لكي يقوم بإعداد إجراءات استقبال السفير واستيضاح الوضع .

٦١٦ عن مقالة : Сталинград дает «ДОБРО». К 65-летию установления дипломатических отношений между СССР и Египтом، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady .
صحيفة إزفيستيا ، موسكو ١١\ ١٩٤٣,٩,٩ .

كان ن.ف. نوفيكوف قد وصل مطار القاهرة ، في الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٣ . وبعد يومين قدم أوراق اعتماده للنحاس باشا ، الذي أدلى بالتصريح التالى : «يسعدنى أن أرحب في شخصكم بأول سفير رسمى من الاتحاد السوفيتي لدى مصر . كما أشعر بالفرحة الغامرة إذ أن الحكومة التي أشرف برئاستها بادرت بطلب إقامة العلاقات الدبلوماسية مع دولتكم القوية . وأن تلك المبادرة لم تذهب سُدى . وأري في مجيئكم إلينا ليس نجاحاً للدبلوماسية المصرية فقط ، بل وبداية لمرحلة جديدة لوجودها الوطني» [٦١٧] .

جاء رد ن.ف.نوفيكوف على هذا الترحاب ، الذي خرج عن إطار البروتوكول الرسمي : « لى عظيم الشرف أن أكون ممثلاً للاتحاد السوفيتي في دولة ، مثل مصر ذات الحضارة العريقة ، التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، وهي دولة قديمة ، ويافعة في نفس الوقت ، وترنو بالكلية إلى المستقبل . وتقدر الحكومة السوفيتية تقديرا رفيع المستوى حسن النوايا لدى مصر . ومن جانبنا فلن نألو جهداً نحو السعي لتوطيد علاقات الصداقة بين البلدين» [٦١٨] .

لقد نجح الدبلوماسي المحنك نوفيكوف في إقامة علاقات وثيقة الصلة مع النخبة السياسية والاجتماعية بمصر في فترة قصيرة جداً ، إلا انه قد عاد إلى وطنه في نهاية عام ١٩٤٤ . وفي يناير من عام ١٩٤٥ حل محله أ.د.شيبورين [٦١٩] . هذا ويذكر أنه قد سبق عملية تدشين العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي فترة من الجهود المضنية التي بذلها الاتحاد السوفيتي ودوائر اجتماعية وسياسية لها رؤية بعيدة من الجانب المصري .

من المعروف أن تاريخ العلاقات بين حكومتي البلدين يعود إلى أمد بعيد ، حيث أصدرت الإمبراطورة كاترين الثانية مرسوماً في التاسع عشر من أغسطس لعام ١٧٨٤ ؛ بايفاد كوندراتي فون طونوس كأول قنصل روسي إلى الإسكندرية في الثالث من يوليو ١٧٨٥ . وبعد ثورة أكتوبر ظلت مصر تعترف بالقيادات السابقة للمفوضية الدبلوماسية الروسية والقنصلية العامة حتى السادس من أكتوبر ١٩٢٣ ، عندما قرر مجلس وزراء دولة الأهرامات

٦١٧ ن . ف . نوفيكوف «طرق ومناهج دبلوماسي» ، مذكرات ١٩٤٣- ١٩٤٤ «موسكو ١٩٧٦ ، صـ٢٧ .

٦١٨ المصدر السابق ، صـ ٢٨ .

٦١٩ مركز الوثائق القومية ، القاهرة ، صندوق ١٤٠ «عابدين . وزارة الخارجية المصرية» ، جرد ١٩٢٤ «روسيا» ، مذكرة عن التصديق على أوراق الإعتماد الخاصة بالوزير المفوض فوق العادة الروسي في مصر ١٩٤٤/١٢/٦- ١٩٤٥/١/١٦ السطر ١ ، ٢ ، باللغة العربية .

إنهاء عمل تلك القيادات [٦٢٠]. في نفس الوقت لم يكن هذا يعني أن مصر قد اعترفت بالسلطة السوفيتية.

في مؤتمر لوزان للشرق الأوسط، الذي عُقد في يناير من عام ١٩٢٣ تقدم المبعوث الشعبي للشئون الخارجية ج.ف.تشيشرين بمبادرة حول تبادل البعثات الدبلوماسية أمام الوفد المصري. في الوقت الذي صرح فيه أعضاء الوفد المصري، الذين كانوا يؤيدون بالفعل تلك المبادرة، من أن نظام الاستعمار البريطاني ليس لديه أي أسس قانونية، تحول دون بدء العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر، خاصة بعد حصول مصر على الإستقلال الرسمي في الخامس والعشرين من أبريل ١٩٢٢. في الخامس والعشرين من أبريل ١٩٢٣، كتب مفوض الشعب للشئون الخارجية رسالة إلى سفير الاتحاد السوفيتي بإيطاليا ف.ف.فاروفسكي : «من المؤكد أنك ستلتقي بمصريين في لوزان، فرجاء أن تستغل تلك الفرصة؛ لكي ترسل إلى الحكومة المصرية الدعوة لبدء إقامة العلاقات الدبلوماسية» [٦٢١]. وكان تشيشيرين يشير في حواراته مع الوفد المصري وفي مراسلاته إلى ف.ف. باروفسكي إلى الاستفادة المتبادلة من تطوير العلاقات التجارية بين البلدين.

بعد مصرع ف.ف.فاروفسكي في مايو ١٩٢٣ واصل السفير السوفيتي الجديد في إيطاليا ن.أ.ايوردانسكي الاهتمام بهذه المسألة، وقام بتوجيه رسالة إلى وزير الخارجية المصري آنذاك واصف غالي بك إقترح فيها « إقامة علاقات سياسية وتجارية بين البلدين لوجود علاقات اقتصادية وثيقة على مدار سنوات طوال تجمع بين روسيا ومصر» [٦٢٢].

كانت الانتخابات البرلمانية في مصر قد أسفرت عن تشكيل الحكومة الجديدة من داخل حزب الوفد الوطني، غير أن الحكومة لم تقرر مناقشة مسألة إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي بشكل رسمي، إلا بعد أن وصل الحزب الى السلطة.

---

٦٢٠ أنظر بالتفصيل أرشيف وزارة الخارجية الروسية، ملف رقم ٨٩ العلاقات بين روسيا وتركيا، وثيقة ٩٦٤، إرشادات للقنصل العام بالإسكندرية عند تعيينه بالمنصب، ١٧٨٤ نفس المصدر، وثيقة ٩٨٦، إيفاد نائب القنصل العام بالإسكندرية أوسترمان بوصوله للإسكندرية والإحتفال بتوليه المنصب ورفع العلم ولقائه مع الباشا وممثلي من الخارجية. ١٧٨٥ نفس المصدر، ملف رقم ٨١٧، حافظة رقم ٣/٨٢٠، وثيقة رقم ٣٦٩.

٦٢١ حول تاريخ إقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي، وثائق - مجلة الحياة الدولية، العدد رقم ٦، لعام ١٩٦٤.

٦٢٢ المرجع السابق.

على أية حال قد جرت لقاءات بين الدبلوماسيين المصريين والسوفيت في العديد من عواصم العالم . وكان ذلك في أنقرة وباريس ولندن على مدار عدة أعوام من عام ١٩٢٠-١٩٣٠ . كان الجانب المصري يرغب في إقامة تلك العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بيد أنه طرح بصرامة مسألة ضرورة اعتراف الاتحاد السوفيتي ببطلان نظام الامتيازات والذي بمقتضاه يكون للدول الأوربية الحق في الحصانة و تخليه عن الدعاية والترويج للثورة في الأراضي المصرية ، وتخليه عن مبدأ تصدير الثورة .

تخلى الاتحاد السوفيتي عن حقوق الامتيازات (بالمناسبة فقد الروس في مصر تلك الحقوق في أكتوبر من عام ١٩٢٣) ، وكان ذلك عقب نشر الحكومة السوفيتية بعد ثورة أكتوبر ، المعاهدات السرية للوفاق الثلاثى لتقسيم دول العالم العربي . أما فيما يتعلق بالدعاية الشيوعية ، فقد كان الأمر أكثر صعوبة ، حيث كانت مصر من الدول المستهدفة لتصدير الثورة العالمية . وعلي صعيد آخر ، فقد أرسل الحزب الشيوعي المصري واتحاد الكادحين الشعبي في مصر التابع للحزب الشيوعي ، عدداً من أعضائهما إلى موسكو بغرض الدراسة بجامعة ستالين الشيوعية لعمال الشرق الكادحين . غادر الأفراد المدربون والمؤهلون بعد الانتهاء من الدراسة إلى مصر . وسرعان ما انضموا للعمل في النشاط الثوري ، ولكن تم إعتقالهم وإدانتهم وحبسهم في السجون . وبعد أن قام الشيوعيون بتوجيه رسالة تهديد واضحة إلى حزب الوفد الحاكم في يناير ١٩٢٤ ، أعربوا فيها عن حرصهم على الزعامة داخل حركة التحرر الوطنية في البلاد ، والإستيلاء علي مصنع « إيجولين» بالإسكندرية للزيوت النباتية ، قامت حكومة الوفد المصرية علي الفور بشن ضربة قوية لكل من الحزب الشيوعي المصري والاتحاد العام للعمال المصري . وفي رسالة موجهة للأممية الشيوعية في الثالث عشر من مارس ١٩٢٤ ، أعلن فيها النشطاء الشيوعيون الناجون أنه لم يبق سوى اثنين أو ثلاثة فقط من أعضاء اللجنة المركزية خارج السجن وقالوا : «لقد تحطمنا تقنياً ومعنوياً» [٦٢٣] . بيد أن حالة الحماس الثوري التي تحولت إلى عقيدة فكرية راسخة تعززت من خلال تحفيز ومساندة الأممية الشيوعية ، والنقابات الشيوعية مما دفع الشيوعيين للدخول في مواجهة حقيقية مع الوفد والمجتمع المصري . بل ووصل الحال إلى أن أصدر علماء الإفتاء في مصر فتوى تدين الشيوعية والبلشفية . وقد أصيبت سلطات

٦٢٣ المركز الروسي لتوثيق وتحقيق وثائق التاريخ الحديث ، الملف رقم ٥٣٩ ، الحافظة رقم ٣ ، الوثيقة رقم ٦٢٩ ، السطر ١٨.

الاحتلال والسلطة المصرية بالذعر مما نشر في الصحف المحلية عن أن الشعب المصري بدأ يحرص علي معرفة التغيرات التي يشهدها الاتحاد السوفيتي . لكن عندما نقيس ذلك من وجهة نظرنا الحالية ، سنجد أن هناك تناقضاً في الموقف السوفيتي ففي . الوقت الذي يرغب فيه الاتحاد السوفيتي في إنشاء علاقات دبلوماسية مع مصر، نجد أن عمليات التدريب التي تتلقاها الكوادر الثورية بجامعة لينين لعمال الشرق الكادحين ، قد أبعدت الدولة المصرية عن روسيا السوفيتية .

مما لا شك فيه أن الإصرار على تطوير العلاقات التجارية مع تلك الدولة الإفريقية قد أتى بثماره . فالبرلمان المصري سبق وأن أدرج في جدول جلساته ، مسألة التجارة مع الاتحاد السوفيتي، واستغلال السوق السوفيتي الواسع لصالح مصر . وأخذ عدد كبير من نواب البرلمان يذكرون كيف أن روسيا سبق وأن اشترت في بورصة الإسكندرية في فترة ماقبل الحرب ١٠٪ من القطن المصري ، وكانت تنافس الأوروبيين بشكل قوي مما حقق مكاسب جيدة للبلاد .

بدأت الصفقات التجارية الخاصة بالقطن (من خلال بورصات مانشستر وليفربول)، و صفقات الأخشاب ومشتقات النفط وغيرها ، تشهد تطوراً في الفترة من عام ١٩٢٣-١٩٣١ ، ثم حدثت بعد ذلك حالة من الركود ، وتوقف بعد ذلك تصدير القطن تماما . وفي عام ١٩٢٥ الأكثر ملائمة للتجارة حيث وصل نصيب مصر من حجم التجارة الخارجية للاتحاد السوفيتي إلى نحو ٣٪ فقط ، وهو أقل من المستوى الذي كان عليه قبل الحرب . بيد أن تلك الإنجازات المتواضعة قد تعرضت كذلك لاختبارات قاسية ، فتارة كان الجانب المصري يفرض ضرائب جمركية مضاعفة (وذلك بضغط من الاحتلال البريطاني ورجال الأعمال)، وتارة كان يتم تفريغ السفن السوفيتية (لدواعي أمنية) خارج ميناء الإسكندرية ، وتارة أخرى كان يتم وقف نشاط الشركات التجارية السوفيتية بالإسكندرية بسبب الأحداث السياسية . وقد تسببت تلك الممارسات في تكبيد مصر خسائر فادحة .

بعد انضمام مصر إلى عصبة الأمم في عام ١٩٣٦ والتي يعد الاتحاد السوفيتي عضواً فيها منذ عام ١٩٣٤ أصبحت العلاقات الثنائية بين البلدين تخضع لميثاق هذه المنظمة الدولية . هذا الميثاق الذي ضمن اعتراف الدولتين ببعضهما البعض بشكل قانوني . ومع حلول عام ١٩٣٩ كان هناك رغبة عارمة في استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ،

وقد شهد هذا العام مباحثات بين ممثلي البلدين ، أسفرت عن اتخاذ قرار مبدئي بإقامة العلاقات الدبلوماسية بداية من الحادي والعشرين من أغسطس ، إلا أنه بعد عشرة أيام سرعان ما اندلعت الحرب العالمية الثانية .

لم تشارك مصر في الحرب العالمية الثانية بشكل مباشر إلاّ أن أراضيها كانت مسرحاً للعمليات العسكرية في هذه الحرب . فقد كانت ألمانيا وحلفاؤها يعلقون آمالاً عريضة على الحملة العسكرية في أفريقيا ؛ بهدف الوصول إلى كافة مناطق إنتاج النفط بالشرق الأوسط . بدأت تلك الحرب بهجوم الإيطاليين علي مصر في سبتمبر ١٩٤٠ وبعد طرد القوات الإيطالية من مصر تم إعادة نشر الفيلق الأفريقي للقائد العسكري رومل في ليبيا في فبراير ١٩٤١ لمساعدة الإيطاليين . وفي صيف ١٩٤٢ كانت مدرعات جيش رومل تحتاج إلى رمية واحدة قصيرة لكي تقع الإسكندرية تحت أقدام المنتصر إلا أن هذه الرمية لم تحدث وذلك يرجع إلى العملية الناجحة « ألترا» التي أدت إلى فك شفرة الإتصال اللاسلكي القائم بين رومل وقيادة الجيش الألماني ، حيث لم يتم تزويد الفيلق الأفريقي بالوقود والذخيرة والعتاد العسكرى إلخ ... وترجع أيضا إلى نجاحات الإنجليز وهزائم الألمان في العلمين . وفي يوليو ١٩٤٢ فقد الهجوم الألمانى قوته ، وفي نوفمبر تحت ضغط القوات الإنجليزية عادت القوات الألمانية أدراجها نحو الغرب ، إلى أن تم القضاء على بقاياهم في تونس في مايو ١٩٤٣.

يرجع السبب الرئيس وراء هزيمة قوات « المحور» في العلمين ، إلى نقص القوات والعتاد وجاءت موقعة ستالينجراد ، لتحرم رومل من تلك الإمدادات . فقد قام المدافعون البواسل عن ستالينجراد عند قلعة نهر الفولجا ، بإعاقة جحافل هائلة لقوات الرايخ الألماني . وتصدت لهجوم قوات هتلر الواحدة تلو الأخرى ، ثم حاصروهم ، وأبادوا البعض ، وأسروا اثنين وعشرين فرقة ألمانية (أكثر من ٣٠٠ ألف جندي) كانوا تحت قيادة الفيلد مارشال باولوس . أما الفيلد مارشال الآخر رومل فقد توسل للفورهر في ذلك الوقت بإرسال ولو بضع فرق إلى مصر في محاولة لإنقاذ الحملة العسكرية الألمانية – الإيطالية ، ولكنه لم يحصل على شيء حيث حرمته ستالينجراد من هذه الفرصة ، وتخلص الشرق الأوسط من مستعبد جديد . وكتبت الصحافة العربية آنذاك «ستالينجراد أنقذت القاهرة وبغداد من خطر مميت» [٦٢٤] .

٦٢٤ ل . ش . جوردنوف ، مصر ، نبذة من الجغرافيا الإقتصادية ، موسكو ، ١٩٥٣ صـ ١٠٦.

أدى الانتصار الساحق للجيش السوفيتي في الحرب الوطنية العظمى ، إلى تحول الرأي العام بالمجتمع المصري لدعم ومساندة التحالف المضاد لهتلر وزيادة الشعور بالتعاطف مع الاتحاد السوفيتي . وخير دليل على ذلك ، يتمثل في إبداعات الأديب المصري البارز طه حسين . وكتب ن.ف.نوفيكوف يقول عن طه حسين : «لقد كان شخصية بارزة ، وديموقراطياً في معتقداته ، وكان يتحدث عن المعتدي الفاشي بكراهية شديدة وكان يبدي تعاطفه الشديد نحو الاتحاد السوفيتي ، الذي قاد حرب التحرير بنجاح ساحق . وقد دفعته هذه المشاعر تحديدا وليس الاعتبارات الرسمية إلى الانضمام إلى لجنة الصندوق المصري لمساعدة الشعب السوفيتي ، حيث كان اسمه يمتلك قوة جاذبة للنخبة المثقفة المصرية . فقد كان في الخمسين من عمره وهو في مجد إزدهاره الأدبي والعلمي » [٦٢٥] . وكان طه حسين الأستاذ بجامعة القاهرة والأديب الجليل يشغل منصب رئيس شرفي بالمكتب الإعلامي لهذه اللجنة ، والذي كان يضم أبرز رؤساء تحرير العشرات من الصحف والمجلات المصرية .

خلال الفترة من عام ١٩٤٢-١٩٤٣ ظهرت في مصر حالة من الولع بالأدب السوفيتي : وبدأت دور النشر الكبرى بالقاهرة وكذلك المحلات مثل : «جين ، بريد» ترسل طلبات رسمية للحصول على المؤلفات الفنية والأدبية ، التي كتبها المراسلون العسكريون السوفيت مثل: أ.ايرينبورج ، ف.بيلياييف ، ل.أوسبينسكي ، ل.خفات وغيرهم [٦٢٦] .

لابد من الإشارة إلى أن مشاركة بريطانيا في التحالف المضاد لهتلر ، قد أثر علي موقفها من مسألة تأسيس العلاقات السياسية المصرية – السوفيتية ، فهي لم تعد بعد ذلك تعارض التقارب بين مصر والاتحاد السوفيتي . وأخذ الدبلوماسيون المصريون في العواصم العالمية الكبرى ينصحون بضرورة إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي . وكتب أحدهم من واشنطن يقول : «لاشك أن تأسيس علاقات دبلوماسية مع دولة حظيت بمكانة مرموقة في العالم ، وأصبحت دولة عظمى قوية ، سيجلب لمصر مكاسب سياسية واقتصادية» [٦٢٧] .

٦٢٥ ن . ف . نوفيكوف ، المرجع السابق صـ ٧٨ .

٦٢٦ أرشيف الدولة الروسية للفن والأدب ، الملف رقم ٦٣١ ، لجنة الشئون الخارجية لاتحاد الكتاب السوفيتي ، محفظة رقم ١٣ ، وثيقة رقم ٢٢٥ ، السطر من ٢٣ -٢٥ ، وكذلك حافظة رقم ١٤، وثيقة رقم ٣٤٨ ، السطر من ١ : ٤٦ .

٦٢٧ فؤاد المرسي ، العلاقات المصرية – السوفيتية ١٩٤٣- ١٩٥٦ ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، صـ ٥١ (باللغة العربية) .

استؤنفت المباحثات من جديد بين ممثلي الدبلوماسية المصرية والسوفيتية ، في فبراير ١٩٤٣ وكانت البداية اجتماع بين وزير الخارجية السوفيتي أ.م.مايسكي ، والسفير المصري حسن نشأت باشا في لندن . وأوضح الجانب السوفيتي أن ستالين يختلف عن تروتسكي ، فهو لا يميل نحو فكرة تصدير الثورة والتدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى . وفي مايو ١٩٤٣ أرسلت الخارجية المصرية خطاباً إلى مجلس الوزراء ، توصي فيه بضرورة بحث هذه المسألة بشكل إيجابى . وفي التاسع والعشرين من مايو من نفس العام ، أذن مجلس الوزراء الوفدي بالاعتراف بالاتحاد السوفيتي وتكليف وزير الخارجية المصري باتخاذ الإجراءات الضرورية التالية لهذه المسألة ، وذلك على الرغم من رد الفعل السلبي للملك فاروق الذي كان معادياً لفكرة تطبيع العلاقات السياسية مع الاتحاد السوفيتي . وفي الثلاثين من يونيو ١٩٤٣ أصدر مجلس وزراء بلد الأهرامات قراراً بتأسيس العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي . وكان ذلك القرار بمثابة حجر الأساس في تدشين مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الثنائية بين الدولتين .